بناة العلم في الحجاز الحديث :

السيد أحمد الفيض آبادي

للأستاذ عبد القدوس الأنصاري

« فصل مستل من الجزء الأول من سلسلة « بناة العلم في الحجاز الحديث » . وهو الكتاب الذي يمثل مبادئ اليقظة العلمية الحديثة لمهد العروبة والإسلام ، في العصر الحديث ، بأسلوب يجمع بين متعة الفن القصصي وعمق البحث العلمي ، لمؤلفه الأستاذ عبد القدوس الأنصاري صاحب مجلة « المنهل » بمكة ورئيس تحريرها . والكتاب تحت الطبع .

عهد جديد :

كان الفتى قد بلغ الخامسة عشرة من عمره . وكانت الأحلام المعسولة تتراقص أمامه كما تتراقص مياه الغدير الصافي للظمآن في الفيافي الجرداء . وكانت الحياة في نظره رؤى وأحلاماً فيها الكثير من الغموض والاظلام . وقد كسبته الحوادث والأحداث الجسام التي مرت عليه قطعانها وهو ناعم الأظفار ، مرونة محدودة ودقة نظر غير بعيدة الأهداف في الحياة والأحياء ... وكان الفتى خجولا منطويا على نفسه محباً للعزلة أنى وجد إليها سبيلا .

وكان لا يبتسم لشيء بقدر ما يبتسم للدرس والكتاب ، وما يستتبعانه من حفظ ومطالعة وتكرار .

وكأن انطوائيته فتحت له آفاق الدأب على تحصيل ما يرسم له من علوم . فكانت متعته وهجيراه أن يتخيل نفسه وقد بز الأقران ، وصار علماً في العلم والأدب العربي يشار إليه بالبنان .

وكانت لديه مع ذلك نفس مكبوتة نزاعة إلى الإلمام بهذه الفنون العصرية التي بدأت تستهويه نغماتها القادمة من آفاق مصر والشام ؛ كما استهوت نغمات « سلامة » ابن أبي عمار المشهور بالقس لعبادته وتقواه . ولكنه في حالته الراهنة ، وهو الطالب بالمسجد النبوي ، لا يكاد يشعر بوجود أية فجوة ينسل من خلالها إلى ذلك الروض الذي يتخيله أنيقا كل الأناقة ، والذي يحن إلى الاستظلال بافيائه كل الحنين .

وفيما هو كذلك وإذا به في أمسية من أماسي الربيع الساجية أمام شخصية بعيدة الصيت هي شخصية السيد أحمد الفيض آبادي التي اشتهرت بالنبل وسمو الأخلاق ، وقد تسربت إلى الفتى إشاعات بأن هذه الشخصية مزمعة أن تفتتح معهداً لتعليم الناشئة ما يصلح مستقبلهم في معاشهم وفي معادهم . فيتقدم بالفتى أستاذه ومربيه إلى هذه الشخصية ، ويجري بينهما حوار لا يتذكر الفتى الآن أكان قصيراً أم طويلا ، ولكنه يتذكر على كل حال أنه كان حواراً ممتعاً رصعت حواشيه بالبسمات وحسن التفاهم ، وتبودلت خلاله عبارات المجاملة والتقدير . وكان الفتى طيلة جلوسه بين يدي الشيخين المتحاورين يحدق النظر بملء عينيه وبقلبه أيضا إلى هذا الرجل الذي بدأ يستشعر له الحب والتقدير برغم بساطة مظهره وتواضعه . وسرعان ما علم الفتى من أستاذه عقب افتراق الرجلين أنهما — في تلك الجلسة الرزينة الهادئة — قد وضعا تصميم الاتفاق على دخول أستاذ الفتى في المدرسة الجديدة الناشئة رئيسا للمدرسين بها ، كما علم أنه قد فتح له باب عهد جديد بما تقرر من أن سيكون ضمن طلاب هذا المعهد في عهده الأول .

ومن الحق أن نقول : إن قلب الفتى قد امتلأ غبطة بهذا النبأ السار الذي يحمل في طياته تحولا جديدا في مجرى حياته بما سيفتح له من أجواء معرفة أوسع مدى من المعرفة التي هو بسبيلها .

وبقدر اغتباط الفتى بهذه الناحية كان اغتباطه أيضا لما أدركه — عقب دخوله المدرسة — من أن المدير قد قرر صرف مكافآت شهرية للطالبين بقدر جدهم وتفوقهم ... ولم لا يغتبط الفتى بهذه الإعانة التي ستمهد له قسطا وافراً من حياة الاستقلال الذاتي ، وتساعده على التفرغ لتحصيل العلم ؟ ... فهو وإن يك مكفي الشؤون لدى مربيه الذي هو خاله وابن عمه وأستاذه ، إلا أنه مع ذلك كان يشعر من زمن الطفولة الغضة أنه يتيم ، ومن دأب اليتيم أن يشعر بأنه في حاجة رتيبة إلى المعونة المادية الوافرة ضمانا لتحسين حاله في المستقبل الغامض المجهول .

وقد ازداد جد الفتى وتضاعف اقباله على التحصيل ، وواصل ليله بنهاره ، ولم يرض مطلقا إبان دراسته إلا أن يكون الأول في كل الاختبارات ، وآثر النصب على الراحة ، وأعرض بالكلية — وما كان من قبل مقبلا — عن ألوان اللهو والمتع التي كانت تستهوي اقرانه الآخرين .